ثم لم تكد تمضي أيام حتى أقبل ذات صباح، مظلم الوجه قاسي اللحظ جافي اللفظ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل، وأنبأها بأنه سيعد لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمنًا في قرية من قرى الريف.

ثم جاء هذا اليوم الذي أخرجَنا فيه من دارنا، وأبعدَنا فيه عن قريتنا ونفانا فيه من أرضنا، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء، وانصرف عنا راجعًا إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء.

منذ ذلك اليوم لم أشكَّ في أن رأيي فيه لم يكن خاطئًا، وأن حكمي عليه لم يكن قاسيًا، وأن نفوري منه لم يكن إلا صورة صادقة لما ينبغي لهذا الرجل الغليظ في قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة، لم تجن على أحد شرًّا، ولا تفهم أن يجني عليها أحد شرًّا، وكانت أمي وأختي تتبعانه ببصرهما محزونتين لفراقه أشد الحزن، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذي نفينا عنه. أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذي كان يوجه بصره شطره، ولكني لم أكن أراه لأني لم أكن أحفل به.

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذه القرية المطمئنة التي أخرجت منها إخراجًا، لعلي أرى دارنا، ولعلي أرى هذا الفناء المنبسط أمامها، والذي كنت ألعب فيه مع أترابي من الغلمان والصبيان، ولكني لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة في السماء بعض الشيء، وأقدِّر أن قريتنا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب، وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذي ينبسط من دون هذه الهضاب، والذي كنت لا أمضي فيه قليلًا حين نفينا من قريتنا إلا أحسست كأني أترك فيه قطعًا من نفسي أنثرها في أرضه الخضراء نثرًا.

نعم! عرفت خالي ناصرًا وهو قائم بإزاء جمليه بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان، وما تصورته قط إلا شيطانًا، ومنذ هذه اللحظة التي رأيته فيها يضع أثقاله وسمعته فيها يسأل عن صاحب الدار، لم أزدد إلا يقينًا بأنه شيطان. سأل خالنا عن صاحب الدار، وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبئوه بأن رجلًا أعرابيًّا عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء، قد أقبل يسأل عنه، فخفَّ العمدة لاستقبال ضيفه، وما زلت أراه يستقبل الأعرابي باسمًا وادعًا، والأعرابي يحييه في غلظة وجفوة، ثم يقول له متعاليًا: إن النبي قبل الهدية يا عمدة، يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التي حطها عن جمليه إشارة المكبر لها الدال بها، والعمدة يدعو بعض رجاله ويشير إليهم أن احملوا هذه الأثقال